الغربة والحنين في شعر ابن خطاب الغافقي المرسي (ت 686 هـ)

Exile and Nostalgia in the Poetry of Ibn Khaṭṭāb al-Ghāfiqī al-Mursī (d. 686 AH)

د. فتيحة محمد أمين العربي
أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة حضرموت
fatehaamene@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2025/11/2 تاريخ القبول: 2025/12/3

الملخص:

تناول البحث ظاهرة الغربة والحنين في شعر ابن خطاب الغافقي المرسي (ت 686هـ)، أحد ألمع أدباء الأندلس في القرن السابع الهجري، كاشفًا اللثام عن تجربة الغربة والحنين ومفاصلها لديه من فراق وفقد وشكوى من الزمان والمكان، وشوق وحنين إلى الديار والخلان، معبرًا عن ذلك بأسلوب اتسم بالبوح الوجداني، وبالسرد الحكائي، واصفًا نفسه بالغريب تارة وبالمغترب تارة أخرى.

وقد وظف ابن خطاب من أساليب البديع من جناس وطباق ومقابلة وتصدير، وصور فنية لاسيما الصورة التشبيهية، التي شخَّصت حال الذات الشاعرة في مكان الغربة، ووصفت أهوالها وشدائدها، مستعينًا بالتناص القرآني، وبفن الصوت في قوة التأثير بإبراز معالم الاغتراب، ووقعه على الذات مرسلًا ومتلقيًا. اعتمدت الباحثة على المنهج الوصفي التحليلي في التعامل مع النص الشعري الخطّابي للكشف عن بناه السطحية والعميقة، وتشكلاته الفنية والأسلوبية.

الكلمات المفتاحية:

- الغربة
- الحنين
- الشعر الأندلسي
- ابن خطاب الغافقي

ABSTRACT:

This research explores the phenomenon of exile (ghurbah) and nostalgia (ḥanīn) in the poetry of Ibn Khaṭṭaab al-Ghaafiqī al-Mursī (d. 686 AH), one of the most brilliant Andalusian literary figures of the seventh century AH. It unveils his experience of exile and nostalgia, detailing its key components: separation, loss, lamentation of time and place, and a profound yearning and nostalgia for homeland and friends. His poetic style expresses these themes through emotional disclosure (būḥ wijdānī) and a narrative approach (sard ḥikā'ī), where he describes himself alternately as the stranger (gharīb) and the exiled (mughṭarib)
The poet employs various rhetorical devices (badī'), including jinās (paronomasia), ṭibāq (antithesis), muqābalah (correspondence), and taṣdīr (repetition). Furthermore, he utilizes distinctive figurative imagery, notably similes, which personify the condition of the poetic self in the place of exile and describes its terrors and hardships. He also draws upon

Key Words:

- Exile
- Nostalgia
- Andalusian poetry
- Ibn Khattab al-Ghaafiqi

	Quranic intertextuality and the art of sound, amplifying the effect to emphasize the features of exile and its impact on the self, both as sender and receiver. **The study adopts a descriptive-analytical approach in dealing with al-Khaṭṭaabs poetic texts, aiming to reveal their surface and deep structures alongside their artistic and stylistic patterns.**

مقدمة:

تعد الغربة والحنين ظاهرة شعرية تتردد في ديوان الشعر الأندلسي؛ لما اكتوى به أهلها من فتن الجلاء والتشريد عن ديارهم ومدنهم منذ القرن الخامس الهجري، بل إن خيوط شعر الاغتراب لتلوح منذ فجر الفتح العربي للأندلس، وما شِعرُ عبد الرحمن الداخل في ذلك المهيع ببعيد[1].

إنَّا بصدد دراسة هذه الظاهرة الشعرية عند أحد ألمع أدباء الأندلس، هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن خطاب الغافقي المرسي (613هـ ـ 686هـ)، "خاتمة الأدباء، بارع الكتابة جيد الشعر"[2]، بل "كان من أبرع الكتاب خطًا وأدبًا وشعرًا"[3]، ويصفه ابن الزبير بأنه "كان كاتبًا بارعًا، شاعرًا مجيدًا"[4]، وقد نبغ في الشعر صبيًا؛ إذ أورد له ابن الخطيب أبياتًا قالها في صباه "تنمُّ عن تحكُّم وبراعة في قرض الشعر، وعن موهبة شعرية"[5]. وله ديوان شعر مجموع موسوم بـ"المستطاب من شعر الفقيه أبي بكر بن خطاب"، بيد أنه مفقود، وشعره الذي نشتغل عليه هو ما حواه مجموع ترسُّله الفريد "فصل الخطاب" بتحقيقنا[6].

وبحسب ظني أن شعر ابن خطاب لم يدرس من قبل، وظل الشاعر وإبداعه الشعري في منطقة الظل، وما جاء من دراسات سابقة كانتْ وجهتُها الناحية التاريخية، مثل "أصداء عن تلمسان الزيانية من خلال رحلة الفقيه أبي بكر بن خطاب المرسي(7هـ/13م)"[7]، و"من أعلام الأندلس بالبلاط الزياني: أبا بكر بن خطاب المرسي"[8]، ومن هنا، فدراستنا من الجدة والسبق بمكان؛ تأتي لتميط اللثام عن الإبداع الشعري لابن خطاب، وتسلِّطُ الضوءَ على شعره الاغترابي، بعد مفارقة الشاعر بلدَه مرسية مكرهًا، مضطرًا، وقد حاصرها العدو الأرغوني الصليبي، بدءًا من وصف غربته بغرناطة، وحنينه إلى مسقط رأسه مرسية، ثم بمقامه في الرشاقة مبعدًا وهي من متفرجات مرسية ـ ثم وصفه فتنة الجلاء والحصار في حصن منتيشة، وموقف الفراق، ووصف رحلته ومسيره برًا وبحرًا حتى وصوله تلمسان حيث استقر فيها إلى وفاته، وشكواه هناك من الغربة والوحدة والوحشة، على الرغم من أنه كان قد تقلَّد رتبة كاتب القلم الأعلى لدى أميرها ابن يغمراسن بن زيان وابنه من بعده، كما

عبر هذا الشعر عن حنينه لبلده مرسية، حنينًا عارمًا، يمتزج برثاء حار لما حل بمسقط رأسه، من تبدُّل الأحوال ومآلها إلى سوء المصير.

لقد عبر ابن خطاب عن محنته وغربته وحنينه من قبل نثرًا لاسيما في رسائله الإخوانية، التي كان يتبادلها مع أصدقائه بعد أن تفرَّقوا وهاجروا، فجاءت تلكم الرسائل والأسى يجللها، "وهذا يشكل ظاهرة في رسائله الإخوانية، فهو دائمًا ما يئنُّ ويحِنُّ ويشكو لاسيما وقد اضطر لمفارقة بلده وإخوانه وخلَّانه"[9]، وعبر عن ذلك شعرًا، بل إنَّ هذا الشعر ليأتي في تضاعيف تلكم الرسائل الإخوانية.

ولنا أن نتساءل كيف عبَّر ابن خطاب عن تجربته الشعرية، وما التيمة أو التيمات المهيمنة على فكره وشعره، وما الأدوات الفنية التي وظفها للبوح بمعاناته في غربته وشوقه وحنينه إلى أهله ووطنه، مستعينين بالمنهج الوصفي التحليلي في الوقوف على نص الغربة للكشف عن بناه السطحية والعميقة، وتشكُّلاته الفنية والأسلوبية، وقد جاء البحث في مقدمة، ثم مدخل، وأربعة مباحث، وخاتمة، وقائمة بمصادر البحث ومراجعه. ومباحثه على النحو الآتي:

المبحث الأول، فجيعة الفراق.

المبحث الثاني: المكان والزمن في غربة ابن خطاب.

المبحث الثالث: رحلة التِّيه والتشرد.

المبحث الرابع: شعرية الحنين.

مدخل:

الغربة لغة واصطلاحًا:

تطلق الغربة في اللغة ويراد بها معان عدة: منها: النزوح عن الوطن والاغتراب، والاغتراب والتغرب كذلك، تقول منه: تغرب، واغترب، وقد غرّبه الدهر[10]. والاغتراب : افتعال من الغربة[11].

وتأتي بمعنى النَّوى والبُعد، والذهاب والتنحِّي عن الناس. والغريب: ليس من القوم، كما يأتي بمعنى الغامض من الكلام والخفيّ منه. والتغريب: النفيُ عن البلد، والتغرُّب: البعد.

فيتضح أن هناك معنى مشتركًا بين تلكم المعاني، هو معنى البعد والتنحي والنزوح والخفاء، التي تؤدي كلُّها إلى معاني الغربة والاغتراب، ويطلق على الإنسان الذي يمارسها وصف الغريب[12]. إنَّ الغربة أو الاغتراب تحمل معنى اجتماعيًا وآخر نفسيًا؛ ذلك أنَّ النزوح عن الوطن، أو البعد والنَّوى، أو الانفصال عن الآخرين،

هو معنى اجتماعي، وأنَّ هذا الانفصال لا يمكن أنْ يتمَّ من دون مشاعر نفسية، كالخوف، أو القلق أو الحنين، تسببه أو تصاحبه أو تنتج عنه[13]، والغريب وصفٌ عميقٌ ومشحون، فهو يعني عند التوحيدي الشقيّ الذي ينطق وصفه بالمحنة بعد المحنة، وأنَّ أغرب الغرباء من يكون غريبًا وهو في الوطن وبين الآخرين، فغربته في حركة دائمًا، فهو "في الجملة كله حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغذاؤه حزن، وعشاؤه شجن، وخوفه وطن"[14].

وبخصوص كلمتي الغربة والاغتراب، فكلتاهما في اللغة بمعنى واحد، وهو الذهاب والتنحي عن الناس[15]، بيد أن بعض الدراسين يفرق بين المصطلحين، "فالغربة مقترنة بالبعد عن الوطن ومفارقة الأحبة والأهل، وهي بذلك مرتبطة بالمكان، أما الاغتراب فهو شعور نفسي يمتلك الإنسان بسبب ما، فيشعر بأنه غريب حتى لو كان في قلب وطنه"[16]، أو هما متداخلان معًا، فالغربة هي "ابتعاد طرف عن طرف: الأول واحد هو المغترب، والثاني متعدد، قد يكون الوطن، أو الإنسان بمختلف علاقاته بالطرف الأول، أو ثقافة المجتمع أو عقيدته، أو إنتاج المغترب أو جسده أو ذاته"[17]، وهي على نوعين:"مادية ومعنوية، فالمادية تطلق على شيئين: الحدث، والمكان، والمعنوية مثل الغربة الروحية، والفكرية، والزمانية، والدينية، والنفسية، وهي ما يمكن أن يطلق عليها جميعها الاغتراب"[18]. ومكمن الاختلاف بين الغربة والاغتراب يرجع إلى الحمولة الدلالية للمصطلحين في الفكر الفلسفي الغربي، الذي يرى أن الغربة غير الاغتراب؛ "فكيفما كانت الغربة انتقالًا أو نأيًا أو نزوحًا أو تخلّيًا أو ما شابه ذلك، إلا أنه سيظل مفهومًا يشير إلى الخارج الإنساني كمعنى مجرد، أما الاغتراب فإنه يشير إلى الداخل الإنساني كشعور مرتبط بمن يشعر به، ومترتب عن الدخول في الغربة وممارساتها"[19].

والغربة عند شعراء الأندلس تختلف عن الغربة أو الاغتراب بالمعنى الحديث، "فهي غربة أنطلوجية ووجودية: غربة المكان، غربة النفس في وطن غير الوطن، ووسط أهل غير الأهل، غربة الروح عن الجذور، بينما في المفهوم الحديث اغتراب حضاري وموقف يتخذه المثقف الغربي، الفارغ قلبه من كل القيم الروحية"[20].

وتشمل الغربة ثلاث حركات، حركة الانتقال من الوطن إلى الغربة، ومن أبرز مظاهرها وتجلياتها الرحيل، وحركة الانفصال، وفيها يبدو الطرفان في حالة تباعد وتنافر، ومن أبرز مظاهرها الفراق، ثم حركة الاختفاء، وفيها يغيب الطرف الأول، وينصب التركيز في الطرف الثاني، حيث يعيش الغريب في غربته منفصلًا عن العالم، ويمثل البعد والنوى والغياب أبرز مظاهر هذه الحركة[21].

في حين يشكل الحنين حركة مضادَّةً وعكسيَّةً للغربة من حيث محاولة الرجوع إلى الزمن الماضي، وإعمال رحلة شعورية وتذكُّرية إلى الوراء رغبةً في الاتصال بالموضوع حيث الوطن والأحبة والعيش الرغيد؛ "فهو رحلة في الزمان، وعودة إلى الوراء لمعايشة الماضي شعرًا، واسترجاعه، واستحضاره على مستوى المكان والأهل والوقائع"[22].والغربة والحنين أمران متصلان، أحدهما ناشئ عن الآخر، فالغربة تولِّد الحنين وتبعث عليه، وتضاعف من وطأته كلما طالت وقستْ ظروفها[23].

لقد أعلى ناقد الغرب الإسلامي حازم القرطاجني من الشعر الشاجي الذي له علقة بالنفس، كالتشوقيات والإخوانيات، وإنَّ شعر الغربة والحنين من ألصق أنواع الشعر علقةً بالذات والنفس، من كونه شعرًا يجمع بين اللذة والألم، أو بعبارة القرطاجني إشراب الارتياح الاكتراث أو العكس، وهو ماسمَّاه بالطرق الشاجية[24]، وإن من أول الدواعي إلى قول الشعر "هو الوجد والاشتياق والحنين إلى المنازل المألوفة وأُلَّافها عند فراقها، وتذكُّر عهودها وعهودهم الحميدة فيها"[25].

حتى إن شاعرًا كالمعتمد بن عباد "لم يثر الدارسين ـ قديمًا وحديثًا ـ بشعره الذي نظمه أيام ملكه، يتغزل ويصف ويفخر، وإنما الشعر الذي ساهم في خلود تجربته هو الشعر الذي صوَّر به نكبته ومحنته ومأساته، ووصف غُربته وحنينه إلى مجده وسلطانه الغابر"[26].

إنا إزاء شعر حافل بألوان من العذابات والآلام، بسبب غربة غالبًا فرضتْ على أصحابها، فأخرجتْهم من أرضهم مُكرَهين، فشكَوا وبكَوا واشتاقُوا وحنُّوا ، و"مما أفاض الدموع في أشعارهم وزاد من شدَّة لَوْعَتِهم، أنهم يهاجرون إلى الأبد، إلى اتخاذ دار الهجرة مستقرًا لهم، خصوصًا بعد سقوط كثير من المدن الأندلسية"[27]، وأن هذا اللَّون من الشعر الباكي يُظهِر "أنَّ نزعة الحنين، ضاربة بجذورها في المجتمع الأندلسي، مُستَولِيَةً على أعماقهم، فنلاحظ أنَّ الإحساس بالغُربة، يستَبِدُّ بالشاعر الأندلسي، حتى حين يرحل من مدينة إلى أخرى، داخل الأندلس نفسها"[28]، والأمثلة على ذلك كثيرة جدًا في كتب التراجم وتاريخ الأدب، عند أعلام الشعر الأندلسي الذين اكتوَوْا بنار الغربة من مثل ابن حزم، وابن زيدون، وابن شهيد، وابن سعيد، والرصافي البلنسي، ويوسف الثالث، وغيرهم كثير، حنوا إلى المدينة الأم ومسقط الرأس.

لقد تدفَّق شعر الغربة والحنين في الأندلس بوتيرة عالية، "ولا يخامر القارئ للشعر الأندلسي أدنى شك في أنَّ الأندلسيين قد توسَّعُوا في شعر الغربة والحنين أكثر من المشارقة"[29]، و"لا نكاد نقلب النظر في مصدر تاريخي أو مجموع أدبي أو ديوان شعري في عصور الأندلس الطويلة ومدنها وأصقاعها المترامية الأطراف حتى نقع على شواهد وأمثلة كثيرة في هذا الباب"[30].ولعلَّ مردَّ ذلك التدفُّق من شعر الغربة الأندلسي إلى أسباب موضوعية خارجية تتعلق بأوضاع سياسية، وانقسامات داخلية، وتوالي النكبات والفتن، واضطرابات خارجية بفعل الغزوات الصليبية، التي لا تكاد تنطفئ نارُ جَذْوَتِها، وأسباب ذاتية نفسية خاصة بالمجتمع الأندلسي؛ "فهو مجتمع يميل إلى الانغلاق والتقوقع عل الذات، والأندلسي ميَّالٌ بطبعه إلى الألفة، يكره الابتعاد عن وطنه وترك أهله، وأي تغيير في نمط حياته يعرّضه لهزَّة نفسية وقلق مستمر"[31].

وشعر ابن خطاب الاغترابي يمتح من تجربة خاصة، ذلك أنه قد امتحن في بلده مرسية، ونزح عنها مكرهًا، وكان كثير التنقل والأسفار، من مدينة إلى أخرى، فهو "لَمْ يَزَلْ يَنْتَقِلُ مِنْ مَكانٍ إلى مَكانٍ، ويَتَرَدَّدُ في دُوَلِ ذَلكَ الأَوَانِ، إلى أَنِ اسْتَقَرَّ آخِرَ عُمْرِهِ بِتِلِمْسانَ"[32]، وخلال هذه الرحلة وقبلها فقدَ أهله وماله وإخوانه، وهذا الفقد أورثه وحشةً واغترابًا؛ فـ"فقد الأحبة في الأوطان غربة، فكيف إذا اجتمعت الغربة وفقد الأحبة"[33]، تجربةٌ تتمحور في تصوير مواقف الفراق والرحيل والجلاء، ومعاناة الوحشة والفقد، وضغطة الأشواق، والحنين إلى الديار والخلان، بطريقة تعبيرية وأسلوبية فريدة، فيها من البوح الوجداني والعاطفي من ناحية، ومن السرد الحكائي، من ناحية ثانية، ما أكسب شعره تنويعًا أسلوبيًا أو مزجًا بين ما هو غنائي ذاتي وبين ما هو موضوعي. واللافت أنَّ شعره في الغربة والحنين يأتي في تضاعيف رسائله الإخوانية، ويمتزج بها، وهذا الأمر يكشف عن أن الخطاب الشعري الخطابي كان لإشباع حاجة نفسية للتخفيف من وحشة، كثيرًا ما شكا منها لاسيما "أن أغلب صحبه قد رحلوا من الأندلس إبَّان الفتنة إلى عدوة المغرب أو تونس، في حين لم يبرح مكانه"[34]، لزم موطنه حتى حلَّت الفتنة بمدينته مرسية، فاضطر للتنقُّل والأسفار داخل الأندلس بين مرسية وإشبيلية وغرناطة، وهي رحلات أورثته الشكوى من الغربة حتى وهو داخل الأندلس، سواء وهو بإشبيلية، أو في مقامه بغرناطة، وقد تبوَّأ الكتابة عن سلطانها النصري، ليصرف عنه الشعور بالحنين إلى بلده مرسية، فكان كثير التطلع نحوها، والسؤال عن أحوالها، ثم وهو بمقامه بحصن منتيشة بعد أن لجأوا إليها فارّين إلى أنْ أجلاهم

العدوُّ عنها، حتى وصل إلى تلمسان، وقد سجَّل كل هذه الأحداث في شعره مما يمكن أن يشكل تجليًا من تجليات غربته عن وطنه بوصف التشرد والنأي عنها مكرها.

المبحث الأول: فجيعة الفراق:

حفل شعر الغربة والحنين على مر العصور الأدبية بتصوير مواقف الوداع، التي تعد من المواقف الإنسانية السامية، فهي لحظات تحوِّل سعادة اللقاء إلى مرارة الفراق، بل كان غايةً في الألم والعذاب[35]. وما الغربة سوى فراق وانفصال عن وطن وأهل وخلَّان، لذلك، فإن الفراق يمثل مفردة من مفردات شعر الغربة، ومِفصَلًا من مفاصل الغربة الثلاثة الأساسية: الوداع، والذكريات، واللقاء[36]، ويكون الفراق "أعمق أثرًا حين يغادر الشاعر وطنه، وهو يعرف أنه لن يعود إليه، فترك في نفسه حزنًا وألمًا، لا يمكن أن ينساه، وسيبقى يذكر هذا الوداع مادام حيًا"[37].

والشعراء يتفاوتون في التعبير عنه، كلٌّ حسب تجربته، ووقعه على نفسه، لكنهم يتَّفقون على قسوة هذا الفراق وشدته، ولعل أقسى ما صوَّرُوه أنه موتٌ في الحياة، فهذا ابن سعيد المغربي يتشوق إلى إشبيلية، فيقول:

إنَّ الفراق هو المنيَّة، إنما أهل النوى ماتوا وهم أحياءُ[38]

يمثل الفراق في شعر ابن خطاب حقلًا دلاليًا مهيمنًا عليه، كثيرًا ما يتردد فيه، حتى أصبح تيمة تأخذ حيزًا شعريًا في غربة ابن خطاب، كمًّا وكيفًا، مما يجعل منه موضوعًا شعريًا، ومعادلًا دلاليًا للاغتراب ومواجعه. وأول ما نطالعه عن الفراق التعبير بالترادف، الذي هو "التطابق في المعنى الأساسي دون سائر المعنى"[39]؛ إذ يرد الوصف بيوم الفراق مراتٍ عدَّةً، وتارة بيوم النوى، وأخرى بيوم التنائي، وإنَّ في تعدُّدِ الدَّوالِّ واشتراكِها في مدلولًا واحدًا يكثِّف من معنى الانفصال، ويعمِّقُ من وقع أثره على الذات مرسلًا ومتلقيًا. ومن شدة وقعه على الذات الشاعرة أنَّ التعبير عنه جاء بأشد عبارة وأبلغها، فيَسِمُهُ الشاعر تارة بالبلاء المبين، ويسوّيه بسكرات الموت تارة أخرى، وكأن هذا الفراق ليس فراقًا مألوفًا بين طرفين، بقدر ما هو فراق الروح عن الجسد؛ إذ وصفه بحال السياق إلى الموت، الذي ينازع فيه كلا الطرفين الراحل والمشيّع النزع الأخير، وقد عبر عن ذلك بألفاظ قوية بجَرْسِها ودلالتها "ذابت حشاشته"، "يموت كمدًا"، "حال السياق"، "القلوب لدى الحناجر قد تجاوزت التراق"، يقول ابن خطاب[40]: (مجزوء الكامل)

يَـــــوْمُ الفِـــــراقِ ومَـــــا الـــــذِي ... يُـــــدْرِيكَ مَـــــا يَـــــومُ الفِـــــراقْ
شَـــــغَلَ العُيُـــــونَ عَـــــنِ البُكـــــا ... ءِ فَـــــلا تَـــــرَى دَمْعًـــــا يُـــــراقْ
إِذْ لَـــــــــيْسَ إِلاّ رَاحِـــــــــلٌ ... ذَابَـــــتْ حُشاشَـــــتُهُ اشْـــــتِياقْ
ومُشَـــــــــيِّعٌ إِنْ لَمْ يَمُـــــــــتْ ... كَمَـــــدًا فَفِـــــي حَـــــالِ السِّـــــياقْ
وإِذا القُلُـــــوبُ لَـــــدَى الحَنَـــــا ... جِـــــرِ قَـــــدْ تَحَـــــاوَزَتِ الـــــتَّرَاقْ

يستهل الشاعر هذا المقطع بكلمة المفتاح، ألا وهي "يوم الفراق"، فهو يوم من الدهر لا ينسى؛ لشدة ما عانى فيه من الأهوال والكرب الشديد، وفي قوله: "يوم الفراق وما الذي يدريك ما يوم الفراق" تناص مع الأسلوب القرآني في تصوير مشاهد أهوال يوم القيامة من مثل قوله تعالى: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [القارعة:1-3] ، وقوله تعالى:﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ [الحاقة:1-3] ، فالعقل الإنساني القاصر مهما أراد أن يتصور فداحة هذا الخطب الجسيم، والهول العظيم الذي هو يوم الفراق، فلن يستطيع ذلك، وقد استحضر مشهد يوم القيامة بكروبه وشدائده وأهواله من باب المبالغة، موظِّفًا أسلوب التكرار؛ إذ كرر يوم الفراق مرتين، وبتوظيفه أسلوب الاستفهام "وما الذي يدريك ما يوم الفراق؟" الذي خرج إلى التفخيم والتعظيم، مستعملًا كاف الخطاب لينبئ المخاطب بأنه يستحيل عليه أن يشعر بما يجيش في نفس الشاعر حينها من أهوال الوداع وشدائده، الذي سمَّاه في تقديمه للمقطع بالبلاء المبين[41]. ومن شدَّة كرب هذا اليوم ذهلت نفوس الناس مودّعين وراحلين، لدرجة أن الدموع قد تحجَّرت في المحاجر فلم تجد لها سبيلًا، وقد عبر عن ذلك بالفعل "شغل"، وهو يقابل "ذهل" وكأنه يستحضر تصوير مشهد يوم القيامة في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ [الحج :2] وفي شدته وبلوغه في النفوس، يعمد الشاعر إلى تصويره بمشهد محنة المسلمين في غزوة الأحزاب؛ إذ بلغت القلوب الحناجر، وما أشدَّها من لحظات، حينما يعاين المرء الموت أمامه ولا مفرَّ دونه، إنه مشهد غاية في الألم والعذاب والكربة.

وإيقاعيًا، وظف الشاعر من الأصوات القوية الدالة على شدة الموقف، كأصوات المد، وحرف القاف الانفجاري قافية، وحرف الشين حيث صفة التفشّي، وفي تقييد القافية بالوقف عليها وإحداث نبر صوتي

يدعم هولَ الموقفِ وشِدَّتَه، ومن وزن بحر المتقارب الذي ينهض على تكرار الوحدة الوزنية المفردة "فعولن"، و"اتسم تكوينه النغمي بوضوح الجرس، وحدة الإيقاع"[42]، ومن عناصر البديع تصدير الطرفين، وهو "أن يكون الدال الأول في فاتحة القول ومقدمته وصدره وأوله، بينما يقبع الدال الثاني في عجز البيت وآخره"[43]؛ إذ أتى بكلمتي يوم الفراق في أول الصدر، وجعلها خاتمة للبيت، وترجيعًا، ويخرج البيت في هذا النوع من التصدير في شكل وحدة منغلقة نقطة النهاية فيه هي نقطة البداية، وكأنَّ الذات الشاعرة في دوَّامة وديمومة من تذكُّر هذا اليوم، فما تنفكُّ تَذكُرُهُ ولا تنساه، وفي هذا التكرار تعزيز الإيقاع، وتأكيد حمولة البعاد ودلالته.

ولأن في هذا الفراق فقدًا، بكل ما يعنيه من خسارة فـ "أول صدمةٍ يتلقَّاها المغترب فقده للأحباب الذين خلفهم وراء ظهره، حتى إن ذلك جعل الفقدان يكاد يتطابق مع مفهوم الاغتراب، وفقد الأحبة غربة"[44] وأي غربة!

وابن خطاب يُلِحُّ كثيرًا على شدة وقع هذا الفراق في نفسه، وأنه حِمْلٌ تَنُوءُ نفسه الرقيقة بِحِمْلِهِ، فيُعرِبُ عن هذه المشاعر بتصوير هذا البُعد والفراق بالموت في الحياة، ويُفَلسِفُ لنا هذا الفراق بهذه الرؤية التي ربما وجدناها عند غيره من شعراء الأندلس.

إِنْ قُلْـــتُ إِنِّيَ مَيْـــتٌ بَعْـــدَ نَأْيِكُـــمُ صَـــدَقْتُ لَكِـــنْ بِـــلا لَحْـــدٍ ولا كَفَـــنِ
أَلَـــيْسَ فَقْـــدُ حَيَـــوْةِ المـــرْءِ مُقْـــتَرِنًا بِفُرْقَـــةِ الـــدَّارِ عِنْـــدَ اللهِ والـــوَطَنِ[45]

ولك أن تنظر إلى هذا الاستفهام المنفي "أليس..." فقد خرج إلى معنى التقرير، ممزوجًا بحَسْرَةٍ وألمٍ، وكأنَّ المفقود "الوطن" رُوحٌ غادرتْ جسدَ المغترب، فما بقي منه إلا الجسد، ومن هنا فالفراق غربة، والغربة والاغتراب موت في الحياة، وما أمرَّها من حياة!

ومن شعرية الفراق عند ابن الخطاب أنْ جعل منه مقدِّمةً افتتح به حكاية مأساة الجلاء والحصر بحصن منتيشة، فغدا هنا مقطعُ الفراق مقطعًا طلليًا إنْ صحَّ التعبير، يحاكي وقوف الجاهليين على ديار أحبَّتهم ووصفَ لحظاتِ الرحيل، اجتمعتْ فيه عناصر الظَّعْن، والوقوف، والبكاء، والرحيل، ومعجم ينضَحُ بدَوَالَّ جَزْلَةٍ تعبِّر عن ذلك، من مثل: فلاة، وسراب، وسدر، والعيس، والبيد، وسقم، وغيرها. يقول[46]: (البسيط)

ما حالَ مَنْ صَحْبُهُ عَنْ عَهْدِهِ حَالُوا ... خَالُوا فُؤَادِي سَلاهُمْ ساءَ ما خَالُوا
بانُوا فَما بانَ لِي يَوْمَ النَّوَى رَشَدِي ... إِنِّي وفُرْقَةُ مَنْ أَهْواهُ تَضْلالُ
لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ حِينَ نَأَوا ... لَكانَ لِي مَعَهُمْ وَخْدٌ وإِرْقَالُ
أَوْ كانَ لِي ولِظَهْرِ العِيسِ بَعْدَهُمُ ... واللَّيْلُ والبِيدُ شَأْوٌ ثمَّ لَمْ آلُ
لَكِنَّ للهِ أَحْكامًا مُقَدَّرَةً ... تَجْرِي ونَحْنُ عَنِ الأَقْدارِ غُفَّالُ
أَحْبابَنا إِنْ تَكُنْ شَطَّتْ مَنازِلُكُمْ ... عَنَّا فلا نَبَأَ احْسانٌ وإِجْمالُ
هَلْ تَذْكُرُونَ مُحِبًّا شَفَّهُ سَقَمٌ ... مُبَرِّحٌ لَيْسَ يُرْجَى مِنْهُ إِبْلالُ
أَقامَ يَوْمَ التَّنائِي سادِرًا أَسِفًا ... وظَلَّ جَذْلانَ ذَاكَ السِّدْرُ والضَّالُ
تَزْهَى الفَلاةُ بِكُمْ حَتَّى لَقَدْ نَكَرَتْ ... أَنَّ السَّرابَ الذي فِيها لَماآلُ
ما زَالَ يَسْأَلُ عَنْكُمْ كُلَّ وارِدَةٍ ... أَقَلّ ما يَلْزَمُ المُشْتاقَ تَسْآلُ
ويُرْسِلُ الدَّمْعَ كَيْما تُرْسِلُوا خَبَرًا ... تَفاؤُلًا ويَخِيبُ الزَّجْرُ والفَالُ
لا تَحْسَبُونِي رَضِيَّ البالِ في دَعَةٍ ... يَأْتِي فِراقُكُمُ أَوْ يَنْعُمُ البالُ

الذات الشاعرة تسترجع ذكرى موقف الفراق الأليم، فقد أحدث فيها شرخًا غائرًا، فهي مذ أنْ كان، قد غادرها الرشد، فتجد المفارقة النفسية بين: بانوا/ فما بان، وهما دالان وإن اشتركا معجمًا، فإنهما يفترقان معنى ودلالة، فالأول يدل على الفراق والبعد والبينونة، أما الفعل "بان" بمعنى ظهر ووضح، والنفي هنا يكشف عن اختلال واهتزاز في الذات الشاعرة حال رحيل أحبَّتها، فلمْ تعد تملك نفسها، وثباتها، فأصبحت في حال من الصدمة أفقدَها رشدها واتزانها، فهي إلى الخبل والجنون أقرب، بل في ضلال مبين بفعل مفارقتها مَنْ تهوى.

ويكتسي الخطاب الشعري بُعدًا شاجيًا، تتجلَّى فيه الحسرة والندامة من خلال توظيف حرف التمني "لو"، التي تفتح أبواب تمنّي ما فات، وهيهات أنْ يرجع الزمن لحصول ذلك؛ ذلك لأنَّ الذات الشاعرة تمنَّتْ أنْ لَوْ لحقتْ بأحبتها، ولم تتركْهم يرحلون دُونَها، فتكَّرر الفعل"كان" ماضيًا، دلالةً أنَّ الأمر قد انقضى وفات، ولاتَ حِينَ مَنْدَمِ.

ويَنسَلُّ فعل التذكُّر في شعر الغربة فعلًا يخلقُ نوعًا من التوازن للذات المغتربة، من خلال التواصل مع الماضي إنْ حنينًا، أو اشتياقًا، أو تحسرًا، أو التذاذًا وتألُّمًا، ولعلَّ من أشد ما يمر بخلد المغترب تذكُّرًا، يوم النوى؛ إذ تحبس الأنفاس، وتغشى النفوس الكآبة، وتذرف الدموع، وشعريًا، نلحظ توظيف التكرار والصورة ومركَّب الحال لتأثيث المشهد بمؤثرات صوتية ومرئية، فتجد أصوات السين في: سقم، وسادرًا، وأسفًا، والسدر، وحروف الحلق من الهمزة والهاء، وحروف المد، مما يعزّزُ قوَّةَ الجَرْسِ وفعاليتَه في تصوير حالة الشاعر النفسية، والصورة الفنية التي تتأسس على المفارقة، فالذات الشاعرة كانت في غمٍّ وهَمٍّ واكتئابٍ لفَقْدِهَا أحبَّتَها، في حين ظلَّت الطبيعة من سدر وضال جذلةً مسرورةً بمرافقتها ظعنَ الأحبة، وحتى الفلاة قد استحالتْ كائنًا تزهو برواحل من يسير عليها. وهي صورة تشخيصية تنطق برغبة الذات أنْ لو كانت برفقةِ مَنْ رحلوا ومَعِيَّتِهِم.

المبحث الثاني: المكان والزمن في غربة ابن خطاب

1. الذات بين مكانين:

إنَّ الاغتراب هو انفصال الذات عن المكان، بيد أنَّ هذا الانفصال يكون مقرونًا باغتراب نفسي، وهذان البعدان/ المكاني والنفسي، كثيرًا ما يلحُّ عليهما ابن خطاب في شعره، فإنه كان في أول أمره وحاله، يحاول أن يتخفف من وطأة هذا الفراق، ويجعل مكان الغربة الذي انتقل إليه، مكانًا طيبًا مادام يجلب له النفع، لكنه، يرجع مرة ثانية، ويشكو من ألم الغربة والبعد عن أهله وبلده وخلّانه، وهذا ما نطالعه في شعره الإخواني، ورده على كتب أصدقائه الذين يسألون عن حاله بعد مغادرته إلى غرناطة، التي وصفها بالجنة، وأنها مكان ينبت العز، فيقول: (السريع)

سَــــــأَلْتَ عَـــــنْ حَـــــالِي بِغَرْناطَــــةٍ	وخِلْتَـــــنِي أَشْـــــكُو بِهـــــا الضُّـــــرَّا
كَـــــــــلاّ ولَكِــــــــــنِّي رَاضٍ بِهـــــــا	لَمْ أَلْـــــــقَ إلاّ الــــــــبِرَّ واليُسْـــــــرَا
فـــــإِنْ أَكُـــــنْ أُخْرِجْـــــتُ مِـــــنْ جَنَّـــــةٍ	فـــــــإِنَّنِي أُدْخِلْـــــــتُ في أُخْـــــــرَى

ولنا أنْ نتأمَّل في البيت الثالث، فقد ذكر فيه خروجه من بلده مرسية التي نعتها بالجنة، وهو وصف كثيرًا ما تمدّح به شعراء الأندلس بوصف مدنهم به خاصة والأندلس عامة، وهذا يكشف سر ارتباط شعراء الأندلس ببلدانهم، في أنها تمثل لهم جنة، بكل ما تعنيه هذه الكلمة من رخاء وجمال واستقرار، وحياة اجتماعية تغلو فيها

ساعات الليل والنهار، غير أن هذا الخروج لم يكن عن طواعية ورضا، فقد عبر عنه بالفعل المبنى لغير فاعله "أُخرِجتُ"، مما يكشف لنا اضطرار الشاعر للخروج ومفارقة مدينته عن إكراهٍ لا عن كره، ويجعل من دخوله غرناطة ونزوله بها أمرًا لا مناص منه، وكأنْ ليس أمامه سواها، فعبَّر عن ذلك أيضًا بفعل مبني لغير فاعله "أُدخِلتُ".

بيد أن الشاعر ما لبث أن ضاق بمقامه بغرناطة ذرعًا، على الرغم من مكانته من سلطانها؛ إذ "استعمل في الكتابة السلطانية مُدَّةً، وكان معلوم القدر، معظمًا عند الكافة"[47]، فيتحول المكان "الجنة" إلى مكان غير مرغوب فيه، من مكان أليف أنيس إلى مكان معادٍ، مصدر قلق ووحشة واغتراب، وهذه المشاعر التي اكتظ بها صدر ابن خطاب، ليبوح بها في رسائله، منها قوله في إحداها: وفيها تخلص من نثره بقوله: "ولَوْلا أَنِّي لا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكُمْ، لَبَثَثْتُ مِنْ أَمْرِ الفِراقِ ما أُقاسِيهِ، وشَكَوْتُ إِلَيْكُمْ مِنَ الاغْتِرابِ، ما يَجْرِي بِكُمْ في شَأْوِ الانْتِحابِ إلى أَقاصِيهِ"[48]، ليتخلص إلى النظم بقوله:(مجزوء الكامل)

لَكِنَّــــــــــنِي أَخْشَـــــــــــى عَلَـــــــــى تِلْـــــــــكَ الـــــــذَّوائِبِ أَنْ تَشِـــــــيبَا
وَعَلَـــــــــــى فُـــــــــــؤَادِكَ أَنْ يَطِيـــــــــــرَ مِـــــــنَ الجَـــــوانِحِ أَوْ يَـــــذُوبَا
فَـــــأَكُونَ قَـــــدْ ضَـــــيَّعْتُ حُبـــــبًّـــــا راسِـــــخًا وَكَسَـــــبْتُ حُـــــوبَا

فانظر إلى هذا التعزيز النصي، باتصال نظمه بنثره، وهو وإن أفصح في نثره عن معاناته الفراق والغربة والوحشة، فقد وظف في هذه الأبيات دوَّالّ تشف عن هذه الغربة وعمقها، وأنها بلغتْ منه مبلغًا خطيرًا، فلو قعد يقص لصديقه وعلينا من أمرها ما أشاب الرؤوس، وأوقعها في جب الكرب والبؤس، وهو ما لم يرد أن يعكر به صفو صديقه، فإن "شيب الذوائب"، و"طيران الفؤاد من مكانه أو ذوبانه" تعبيران عن شدة مكابدته أمر الغربة وأهوالها.

غربة متجددة وملازمة للذات الشاعرة، داخل الأندلس وخارجه، منذ أن غادرت موطنها الأول مرسية، ففقدت رحم المكان، لذا، فإن شعر ابن خطاب كثيرًا ما يشكو من المكان أينما حلَّ، ويتطلع إلى مكان مثالي، حيث الصحبة والأنس وتقدير الذات، فمن تلمسان آخر مستقره، يتطلع إلى تونس "حيث العز ظله ممدود، والملك أزره مشدود، وللآمال وفود تتبعها وفود"[49]، فإنَّ "مما زاد في معاناة ابن خطاب بتلمسان

افتقاده صحبه وأحبته، مما أورثه حالة من الوحشة والوحدة، وهو بلا أهل ولا وطن، ولا ولد، فكان دائمًا ما يتطلع إلى صحبه ويرغب في الالتقاء والالتحاق، لاسيما أن أغلبهم كان بحضرة تونس وسبتة وفاس"[50].

يقول[51]: (البسيط)

وَلِي رَجَـــاءٌ لَـــوَ أنَّ الـــدَّهْرَ يُسْـــعِدُنِي ... بأَنْ أَحُـــلَّ بـــذاكَ المُنْتَـــدَى عَجِـــلا
هُنـــاكَ أُلْقِـــي عَصـــا التَّسْـــيارِ مُتَّـــدِعًا ... وأَحْمَـــدُ العِـــيسَ والبَيْـــدَاءَ والـــرَّحْلا
وأَلْـــبَسُ العِـــزَّ مُوشِـــيّا مَطارِفُـــهُ ... وأَشْـــرَبُ العَـــذْبَ لا رَنْقًـــا ولا وَشَـــلا
أُطْفِـــئُ [بِـــه] لَوْعَـــةً في الصَّـــدْرِ تَأْكُلُـــهُ ... كَمِثْـــلِ مـــا تَأْكـــلُ الصَّمْصـــامةُ الخِلَـــلا

تبدو الذات الشاعرة وبيدها عصا التسيار، فلا استقرار في المكان، في رحلة دائمة ، وسفر مستمر، فهي تأمَلُ وترجو هذا المكان المأمول "المنتدى" حيث السَّعة والرحابة، والراحة والمتعة والاستقرار، فوضع عصا التسيار كناية على الوصول إلى الهدف المنشود، والقرار في المكان المقصود، وإن في الأفعال ومفاعيلها: "ألبس العز، وأشرب العذب، وأطفئ لوعة"، كلها تشي بدلالات مغايرة مخالفة؛ تحكي واقع الذات المغتربة، فالعز مفقود، والشُّرب مُكَدَّر، والصدر مكلوم بنار الغربة، فالرغبة في قهر الغربة يكون بتغيير المكان، وهذه الأحلام تسكن نفس ابن خطاب، وترى في المكان المتطلع إليه ما يسعف في تحقيق كل ذلك.

إن من أشد ألوان الاغتراب، الاغتراب النفسي، حين يشعر المغترب بالوحشة والاكتئاب، حيث لا أمن، ولا أنس، في المكان الآخر، مكان الاغتراب؛ إذ "تحس الذات بنوع من القلق الكينوني والاضطراب الهوياتي ما يشعرها بنوع من الاغتراب الوجودي"[52] من وحشة المكان وعزلة الذات، لذلك فالذات تسعى لقهر الغربة من خلال مدِّ جُسور التواصل والتراسل مع الأحبة، وحفزهم على إذكاء روح المحبة وبعثها من مرقدها، وجعل من هذا التواصل وسيلةً للتخفيف من وطأة الغربة، واسترجاع الماضي الجميل الذي غدا حلمًا يراوِدُ كُلَّ مغترب، لذا، نجد ابن خطاب يُكثِرُ من شعره الإخواني يبثُّه حبه وشوقه لأصدقائه، ويعتب عليهم إنْ غفلوا عن مواصلته في حينٍ هو في أمسِّ الحاجة إليها، لذلك، فإنه كثيرًا ما تقاطع ـ في شعر الغربة ـ الانفصال المكاني مع عاطفة الحب لتشتدَّ وطأة الفراق على النفس، فتظهر مشاعر الألم والقلق والفقدان[53].يقول ابن خطاب[54]:(البسيط)

يا رَاقِـدَ اللَّيْـلِ عَـنْ حَـالِ الشَّـجَا الصَّـمِنِ ... قَـلَّ لِعَيْنِـكَ مَـا حَرَّمْـتَ مِـنْ وَسَـنِ
أَشْـكُو وتَشْـكُو ودَعْـوَى الشَّـوْقِ وَاحِـدَةٌ ... وشَـاهِدُ الصِّـدْقِ لا يَخْفَـى علـى الفَطِـنِ
هَبْنـا اشْـتَرَكْنا جَمِيعًـا في الفِـراقِ أَمَـا ... آثَرْتُمُـونِي بِحَـظِّ البَـثِّ والحَـزَنِ
و مـا أَلُـومُكُمُ إِنْ لَمْ تَسُـحَّ دَمًـا ... جُفُـونُكُمْ بَعْـدُ في الأَطْـلالِ والـدِّمَنِ
و لا أَضَـرَّ بِإِخْـلاصٍ سُـلُوُّكُمُ ... و لا انْطَوَيْـتُ عَلَـى أَحْشـاءِ مُضْـطَغِنِ
مـا إِنْ نَسِـيتُ و لا أَنْسَـى عُهُـودَكُمُ ... علـى مُزاحَمَـةِ الأَنْكَـادِ والمِحَـنِ
سِـيَّانِ عِنْـدِي ودِيـنُ الحُـبِّ مُتَّبَـعٌ ... نَاسٍ أَحِبَّتَـهُ أَوْ عابِـدًا وَثَـنِ
سِـرُّ اشْـتِياقٍ إِلَـيْكُمْ لا أَبُـوحُ بِـهِ ... وكَـتْمُ ضُـرِّيَ مِمَّـا زَادَ في شَـجَنِ
فـلا تَظُنُّـوا الـذي في القَلْـبِ مِـنْ أَلَمٍ ... هُـوَ الـذي قَـدْ بَـدا لِلنَّـاسِ مِـنْ عَلَـنِ

فالنص هنا ينضح بدوالَّ تكشف عن مشاعر الشكوى والشجى والحزن والألم، التي يعيشها مغترب الدار والوطن، البعيد عن أصحابه، والأشواق تتَّقِدُ في جوانحه، وهو يتطلع لمن يخفِّفُ عنه من لَأْوَاءِ غُربته ووحدته بالمبادرة بالبث والبَوْح، ومشاركة الأحزان والأتراح، ويعتب على إخوانه وصحبه أنهم سلوه ونسوه، وهي جريرة عظيمة اقترفوها، تماثل جريرة عبادة الأصنام التي هي من أعظم الكبائر في دين الله، كما أنَّ نسيان الأحبة من أعظم الكبائر في دين الحب. وتأتي هذه المصارحة في أسلوب شفَّاف، يعتمد إثارة الشجون بالاتكاء على الأساليب الإنشائية من نداءٍ وأمرٍ واستفهام في "ياراقد الليل"، "هبْنا اشتركنا/ أما آثرتموني"، فالنداء يتضمن المشاركة، وهو وساطة يستخدمها الشاعر لمد الخطاب[55]، ومن أسلوب شرط بإن، يقتضي ربط المقدمات بنتائجها، وهو من أساليب المنطق في عرض الحجج للإقناع والبرهان، في قوله: "إنْ قلت إني ميت بعد نأيكم، صدقتُ"؛ ليبلغ مداه في هذه المفارقة في تصوير الفراق، بأنه حياة في موت، "إني ميت بعد نأيكم لكن بلا لحد ولا كفن"، وأي حياة للمرء وهو ناء عن أحبته، وعن وطنه!

2. الزمن في غربة ابن خطاب

تجربة ابن خطاب الاغترابية تنضح بالشكوى من غدر الزمان وقسوته، وتقلباته، وتحولاته؛ "إذ بات الزمن يمثل محورًا أساسيًا في تشكيل ظاهرة الاغتراب الإنساني، وذلك من خلال فقدان التوافق النفسي، والانسجام الذاتي مع اللحظة التي يحياها الفرد، وظهور حالة من التوتر بفعل تلك التبدلات النفسية"[56]، وأضحى الصراع مع الزمن من الهموم التي أرقّت الشاعر في اغترابه[57].

والناظر في هذا شعر الغربة عند ابن خطاب يجد أنَّ ابن خطاب كان ينظر إلى الزمن أنه عدو، وأنه في صراع معه، لذلك فقد أكثر من ترداده ومرادفاته من أيام ودهر و... في غير قصيدة كالنونية، والواوية، واللامية. مثل قوله[58]:

أَيُّ اعْتِـــــذارٍ لِنَـــــائِي الـــــدَّارُ مغْـــــتَرِبِ ... يَعِـــيشُ نَصْـــبَ الـــرَّزايَا عُرْضـــةَ الفِـــتَنِ
تَلَعَّبَـــــتْ بِيَ أَيَّامِـــــي فَهـــــا أَنَـــــذَا ... وطـــــارِقُ الهَـــــمِّ ملْـــــزُوزَانِ في قَـــــرَنِ
قَـــــدْ كـــــانَ ســـــالَمَنِي دَهْـــــرِي وَسَـــــلَّمَ لِي ... لَكِـــــنَّ هُدْنَتَـــــهُ دَأْبًا عَلـــــى دَخَـــــنِ
وَكُنْـــــتُ آنَـــــفُ مِـــــنْ ضَـــــيْمٍ أُقـــــادُ لَـــــهُ ... حَـــــتَّى اغْتَرَبْـــــتُ فَقـــــادَ كَفُّـــــهُ رَسَـــــنِي
وَكُنْـــــتُ بالصَّـــــبْرِ أَثْـــــرَى العَـــــالَمِينَ يَـــــدًا ... والصَّـــــبْرُ أَوْثَـــــقُ مـــــا أَعْـــــدَدْتُ لِلـــــزَّمَنِ
مَـــــتَى دَهـــــانِيَ خَطْـــــبٌ فَـــــتَّ في عَضُـــــدِي ... أَنْفَقْـــــتُ صَـــــبْرِيَ في لَأْوائِـــــهِ فَفَـــــنِي
فَكَيْـــــفَ حَـــــالِيَ لا أَمْـــــنٌ و لا دَعَـــــةٌ ... و لا اصْـــــطِبارٌ و لا خِـــــلٌّ يُؤَنِّسُـــــنِي
أَشْـــــكُو إِلى اللهِ أَهْـــــوالًا أُكابِـــــدُها ... قَـــدْ جُلْـــتُ فِيهـــا فَجَـــالَ السُّـــقْمُ في بَـــدَنِي

إن مثلًا سار في الناس أنَّ من خرج من داره قلّ مقداره، وهذا مصير كثيرًا ما شكا منه ابن خطاب، فقد ألفى نفسه غريبًا هدفًا للرزايا ، معرَّضًا لتقلُّبات الزمن من الفتن والمحن واللأواء. وعبارته "أي اعتذار لنائي الدار مغترب" مشحونة بكل هذه الهواجس، وفعل الزمن في الذات الشاعرة بدا جليًا، بتوظيف دوالَّ تشي بالاستهداف والصراع، على نحو الفعل "تلعّبت"، "سالمني دهري"، "لكنَّ هُدنتَه على دخن"، فإن صيغة "تلعّبت" بما فيها من تضعيف أفادت التكثير والمبالغة في اللعب وهو العبث، وكأنه غدا ألعوبةً بيد الأيام تقلبه يمنة ويسرة، وترمي به كالكرة، حتى إنه أصبح هو والهم قرينين ملتصقين بعضهما ببعض، كناية عن لزوم الهموم وإحاطتها به، فضلًا عن حالة الصراع بينه وبين الزمن، فهو وإياه في سجال؛ تارة سلم، وتارة حرب، وحتى في سلم الزمن دخن وغدر.

وكقوله:

وتابَعَ الدَّهْرُ أَلْوانًا حَوادِثُهُ ... عَلَيَّ فَهْيَ مَعَ الأَحْيانِ تَنْثالُ[59]

فالذات الشاعرة مذ أن اغتربت قد نقض الدهر عهده معها، فيرميها عن قوس واحدة، فتنثال نحوها نبال الحوادث فتصيبها في مقتل من قلق وخوف وفقد ومرض وحزن وهم، بكل ألوان الحوادث ما شئت أن تتصورها

وتخطر على بال! إزاء فعل الزمن وسطوته، وقهره الذات الشاعرة المغتربة، فإذا بها تقاومه وتجابهه بوساطة إطلاق فعل الأمنيات، والأمنية في شعر الغربة مفردة تنبث بلسمًا لآهات الذات التي اكتوت بالغربة والاغتراب، متخذة من اداة التمني " ليت" مطية لقهر الغربة، وقسوة الزمن. يقول ابن خطاب[60]: (المتقارب)

فيَـــا لَيْـــتَ قَسْـــوَةَ هـــذَا الزَّمـــا ... نِ أعْـــدَتْ فُـــؤَادِيَ يَـــوْمَ النَّـــوَى
فَلَـــمْ يُشْـــجِنِي سَـــجْعُ قُمْرِيَّـــةٍ ... تَنُـــوحُ لِإِلْـــفٍ نَـــوَى أَوْ ثَـــوَى
وَلَمْ أَسْـــأَلِ الـــبَرْقَ هَـــلْ سُـــقِيَتْ ... رُبُـــوعُ الصِّـــبا ومَغَـــانِي الهَـــوَى
وَهَـــلْ ذَلِـــكَ الـــرَّوْضُ مِـــنْ بَعْـــدِنا ... نَضِـــيرٌ أَوِ اشْـــتاقَ حَـــتَّى ذَوَى
وَلَكِـــنْ غَرِيـــبٌ وَلا أُنْـــسَ لِي ... سِـــوَى شَـــجَنٍ فِي ضُـــلُوعِي ثَـــوَى
أُعَلِّـــلُ بَالـــدَّمْعِ قَلْبًـــا عَلِـــيلًا ... وَيَا لَيْتَـــهُ بَلَّـــهُ فَـــارْتَوَى
وأَلْقَـــى إِذا صَـــادَمَتْنِي الخُطُـــوبُ ... بَصَـــبْرٍ جَبـــانٍ ضَـــعِيفِ القُـــوَى

يكشف النص عن تجربة الغربة لدى الشاعر، فافتتح المقطع بليت، أداة التمني ووسيلة التطلع نحو المحبوب، وهو "طلب حصول الشيء على سبيل المحبة، ويكون المطلوب دائمًا غير متوقع أو ما لا سبيل إلى تحقيقه"[61]، ومن وراء كلمة "ليت" في أكثر مواقعها ظمأ لا يروى، وإنها تصف آمالًا حبيسة ورغائبَ لا سبيل إلى تحقيقها، وإن إيغال الرغائب في البعد مما يزيد النفس تحرقًا واستعارًا"[62]، ولم يكتف بها، بل ناداها بالياء، وكأنها هي في بعد، شأنها شأن من نأى عنه، فإن في تقديم حرف النداء هنا التنبيه واللفت، ذلك "إذا أرادوا مزيدًا من التنبيه واللفت قدموا عليه ـ أي ليت ـ "ألا" أو "يا" فيقولون ألا ليت أو يا ليتني"[63].

والعجب، أن الذات هنا تتمنى بلوغ حالة تشبه فيه الدهر في قساوته وشدته، بالعدوى به، فتغدو قاسية الفؤاد، ليبدو مطلبًا في ظاهره وسطحه سلبي، لكن في باطنه إيجابي، حتى تقاوم يوم النوى والفراق وتنتصر عليه بقوة قلب، وثبات جأش، فلم يؤثر فيها فيكسرها، فالذات تتمنى أن تكون ندًا قويًا تجابه محاولة الزمن بإغراقها في بحر الغربة، وإبطال مفعوله فيها، فيأتي أسلوب النفي نتيجة رغبة الذات التحرُّر من الزمن وقسوته، بنفي تداعيات الغربة من حالات البكاء والنوح والحسرة والحنين، (فلم يشجني سجع قمرية/ ولم أسأل البرق) والنفي "بنية أثيرة في شعر الغربة، لا نكاد نعدمها عند أي شاعر مغترب"[64]. إن هذا النفي مفرغ من محتواه، فهو قيد التمنّي، بل على العكس، فإن هذه الأفعال المنفيَّة قد حدثتْ للذات الشاعرة، فكان من أمر معاناتها في الغربة ما كان؛ فهي ما إن ترى قمرية تسجع إلا ويشجيها، وترى البرق فيذكي شوقها وحنينها إلى الوطن،

فكأن الذات تعيش زمنين، زمنًا شعريًا من خلال التمني، والنفي، وزمنًا اغترابيًا واقعيًا، وبين اللحظتين تقف نصيًا "لكن" التي تلاها وصف الذات، "ولكن غريب..."، وهكذا "إذا لاذت الذات بالتمني واجهها واقع أليم تتصدره نصيًا الأداة "لكن" التي تبدو وكأنها الممثل الشعري للواقع في مقابل "ليت" الممثل الشعري للأماني"[65].

إنَّ لفظة "غريب" مفردة تحتل مكانًا مركزيًا في شعر الغربة، فهي وصف مشحون بألوان العذابات والآلام، جسدها هنا لفظة "شجن" التي أتت نكرةً لتستوعب كل ألوان الألم والبؤس والأسى، فضلًا على أنها أتت في أسلوب حصر، وكأن الشاعر الغريب محاصر ومحصور في هذه الدوَّامة. ورغم محاولات الذات الشاعرة اللجوء إلى المسكنات التي لربما تخفف عنها من لأوائها، تتعلل بالدموع لتطفئ عنها حرارة اشتياقها، وتروي غلتها، دون جدوى، فإن الغريب دائمًا ما يكون " مهمومًا ومسكونًا بالتوتر، ومتعاملًا مع الانفعال ومستطارا"[66].

إن من ملامح الشعرية في هذا النص اتكاءه على فن الصوت، من حيث الإكثار من الأصوات الطويلة، والحروف ذات جرس الشكوى، فقد بنى الشاعر نصه على صوت الواو الملحق بالألف المقصورة، مما خلق مقطعًا حزينًا، كئيبًا، مشحونًا بالآهات، ومن تكرار لفظ النوى مرتين، فضلًا عن أن كلمات القافية نفسها ذات وقع دلالي مشعر بالانكسار والتمزق والغياب (النوى، ثوى، ذوى، الهوى...) "والانفجارات العاطفية الباكية تجعل التعامل مع حروف اللين والمد والأصوات المتقدمة في الفم شيئًا طبيعيًا . وأظهر ما يكون هذا في القافية"[67].

المبحث الثالث: رحلة التيه والتشرد:

في غربة ابن خطاب تبرز الرحلة عنصرًا ثابتًا ودائمًا، وقد مر بنا بعض التعبيرات الدالة على ذلك، كقوله في تطلعه نحو تونس" هناك ألقي عصا التسيار متّدعًا"، وقد سجل رحلاته في رسائله الإخوانية، سواء رحلته إلى إشبيلية أو غرناطة ووصف ما واجه وجابه من مخاوف ومشاق، غير أنها جاءت في إطار نثري، خلا خروجه إلى حصن منتيشة وحصره فيه مع من كان معه، وقص علينا عن هذه المحنة والفتنة نثرًا وشعرًا، حتى ساقه القدر للخلاص إلى مدينة تلمسان[68].

إن الرحلة الخطابية التي نعالج هنا، هي رحلة التشرد والتيه والجلاء، في فصل قاتم من فصول غربة ابن خطاب، أضاءه شعرًا، من خلال سرد أحداث هذه الرحلة بكل تفاصيلها وشدائدها، فكأننا إزاء حكاية أو فصل من سيرة ذاتية بطلها الراوي نفسه. ذلك ما جاء في أطول قصائده، وهي اللامية.

جرت أحداث هذه الفتنة في حصن منتيشة، وهي قلعة لجأ إليها ابن حطاب مع أحد الوزراء لمصاهرة انعقدت بينه وبين حاكم منتيشة، وعما قليل تحولت هذه القلعة إلى ساحة حرب باجتياح العدو لها، وإعماله القتل والأسر في الناس: يقول[69]: (البسيط)

أَعْـــدا العَـــدُوُّ عَلَيْـــنا حِـــينَ أَسْلَمَنـــا ... لِحُـــكْمِهِ مِـــنْ رُعـــاةِ الجَـــوْرِ إِهْمـــالُ
حَـــتَّى اسْـــتُبِيحَ الحِمَـــى مِنَّـــا وحُـــمَّ لَنـــا ... يَـــوْمٌ بَـــدَتْ لِلْمَنـــايا فِيـــهِ أَشْـــكالُ
رَمَـــى بِنـــا خَوْفُـــهُ مَنْتِيشَـــةً فـــإِذا ... خِـــلالَ أَطْلالِهـــا لِلـــذُّعْرِ إِطْـــلالُ
شَـــرٌّ أَجـــاءَ لِعُرْقُـــوبٍ ومَحْنَـــهُ ... وَقَـــدْ يُقَصِّـــرُ بالمِـــرْتادِ أَمْحـــالُ
مـــا كـــانَ إِلاّ قَلِـــيلًا ثُمَّ حَـــلَّ بِهـــا ... مِـــنْ عَسْـــكَرِ الـــرُّومِ مَقْتَـــلٌ ومِقْتـــالُ

يبدأ النص بسرد مجريات الأحداث عن اليوم الأسود، الذي اضطر ابن خطاب إلى مغادرة مدينته أو إحدى نواحيها (الرشاقة)، بعد أن استبيحت من العدو الأرغوني، فاضطر ومن معه اضطرارًا إلى النزول في قلعة منتيشة، فإذا بهم كمَنْ يستجير بالرمضاء بالنار، وهنا نجد الشاعر يوظف بديع الجناس توظيفًا غاية في الافتنان، بين: الحمى/ حُمّ، أطلال/ إطلال، مقتل/ مقتال، وهذا الاشتقاق أو الاقتطاع يجسد اقتطاعًا في النفوس هلعًا ورعبًا وفوتًا وموتًا. وفي الفعل "رمى" دلالة الإبعاد والإقصاء إلى مسافة بعيدة، وفيه شدة الدفع والقذف.

في لحظة يتوقف السرد ليخلفه الوصف للعدو، موظفًا اللّون في الكشف عن شراسة العدو وتكشيره عن نابه باللون الأزرق؛ بوصف عيون الروم زرقاء، وأسنَّتهم، و"ارتبط اللون الأزرق بالأسنَّة للونها أو لصفائها، وقد شكل مع السمرة والبياض ثالوثًا لونيًا"[70].

زُرْقٌ عُيُـــــــــــونُهُمُ زُرْقٌ أَسِـــــــــــنَّتُهُمْ ... فَهُـــمْ ومـــا اعْتَقَلُـــوا لِلْحَـــرْبِ أَمْثـــالُ
فَمِـــنْ بُـــرُوقٍ لِبِـــيضِ الهِنْـــدِ لامِعَـــةً ... وَراءَهـــا مِـــنْ سَـــحابِ المَـــوْتِ هَطَّـــالُ

ثم يقص علينا الشاعر محاولة الفرار الثانية باعتلائه ومن معه قمَّة الحصن، احتماءً به، وهنا يوظف كثيرًا الصورة التشبيهية مستخدمًا أداتي التشبيه (كأنَّ) تارة و(الكاف) تارة أخرى، وكذا الصورة الاستعارية، فهم كأنهم أوعال، بيد أن هذه القمَّة كانت مرمًى لمجانيق الروم، ويأخذ الوصف سبيله في عرض مشهد أو مشاهد

الحصار، وإعمال آلة الدك والنَّسْف لمباني الحصن وشرفاته، وكأن تلك المجانيق طيرٌ غائرةٌ على صيد، وإذا بتلك الشرفات من شدة تحطُّمها كأنها تفزع إلى السجود.

وَمِـــنْ مَجـــانِيقَ تَسْـــمُو في الهـــواءِ لَهـــا ... طَـــيْرٌ علـــى شُـــرُفاتِ الحِصْـــنِ نُـــزَّالُ
تَأْوِي لِتِلْـــكَ الـــبُرُوجِ الشَّـــامِخاتِ وفِي ... أَوِيِّهـــا ذاكَ إِحْـــلاءٌ وإِحْـــلالٌ
إذا أَلَمَّـــتْ تَـــرى الجُـــدْرانَ قَـــدْ فَزِعَـــتْ ... إلى السُّـــجُودِ فـــإِذْلالٌ وإِجْـــلالٌ

وبعدَ لَأْيٍ، يُبرَمُ صُلحٌ، فيكون الفرار الثالث بالتوجُّه إلى بلنسية، ولم تكنْ بأحسنَ حالًا، بل كانت الإقامة بها داهية الدَّواهي، فذاق ابن خطاب وصَحْبُهُ من الأهوال والمذلَّة حدَّ أنْ بِيعَ سروال وسربال. ويواصل الشاعر سرد الأحداث في حسرةٍ وأسًى، ويعمد الشاعر إلى تشقيق اللغة لتعبّر عن هذه الحال، وهو يكشف البُعدَ الديني في سوء المعاملة، وقيام محاكم تفتيش يُشرِفُ عليها يهود ونصارى، تَنتَقِصُ من كرامة الأندلسيين الفارّين بدينهم وأنفسهم ؛ فموسوي مواسيه تقطعنا/ وعيسوي عسا يبأى ويختال؛ ليكون الخلاص في نهاية مطاف هذه الرحلة الشاقة، وذلكم الجلاء والبلاء العظيم إلى الانصراف إلى تلمسان عبر البحر في سفينة، أخذَ ابنُ خطابٍ في وصفها وهي تَمخَرُ بهم عُبَابَ البحرِ ثلاثةَ أيام.

ثُمَّ اتَّفَقْنـــا علـــى سِـــلْمٍ كَمـــا اقْتَرَحُـــوا ... لَمْ يَنْـــأَ عَـــنْ عَقْـــدِها الـــمَنْشُومِ إِغْفـــالُ
وبَعْـــدَها كـــانَ مِنَّـــا في تَوَجُّهِنـــا ... إلى بَلَنْسِـــيَةٍ لِلسَّـــيْرِ إِعْمـــالُ
لمِـــا حَلَلْنـــا بِهـــا حَلَّـــتْ بِنـــا مِحَـــنٌ ... رَضَّـــتْ كَواهِلَنـــا مِـــنْهُنَّ أَثْقـــالُ
فَمُوسَـــوِيٌّ مَواسِـــيهِ تُقَطِّعُنـــا ... وَعِيسَـــوِيٌّ عَسَـــا يَبْـــأَى ويِخْتـــالُ
كَأَنَّنـــا نَقَـــدٌ أَلْقَـــتْ بَراثِنَهـــا ... فِيهـــا ثَعالِـــبُ أَوْ أُسْـــدٌ و أَشْـــبالُ
مـــالُوا عَلَيْنـــا ومـــا مَلُّـــوا مُطالَبَـــةً ... حَـــتَّى لَهانَـــتْ عَلَيْنـــا الـــنَّفْسُ والمـــالُ
رُمْنـــا الخَـــلاصَ وَهَيْهـــاتَ السَّـــبِيلُ لَـــهُ ... والـــبَرُّ والبَحْـــرُ أَذْعـــارٌ وأَوْجـــالُ
فَبَعْـــدَ لَأْيٍ قَضِـــيناهُم غَرامَتَنـــا ... وبَعْـــدَما بِيـــعَ سِـــرْوالٌ وسِـــرْبالُ
ثُمَّ انْصَـــرَفْنا إلى إِعْمـــالِ جارِيَـــةٍ ... كَـــأَنَّ جِرْيَتَهـــا في المـــاءِ جِـــرْيالُ
... حَـــتَّى وَصَـــلْنا هُنَيْنًـــا بَعْـــدَ ثالِثَـــةٍ ... فحـــانَ لِلـــرَّوْعِ تَقْـــوِيضٌ وتَرْحـــالُ

المبحث الرابع: شعرية الحنين:

لم يخلُ شعرُ غُربةٍ من شعور الحنين إلى المكان الأوَّل؛ حيث مسقطُ الرأس، وفلذةُ الفؤاد، ودفءُ الدار، وعناقُ الأصحاب والأتراب، ومحفلُ الذكريات... ومن هنا، فالحنين "فيوضٌ في الوجدان الذاتي، يقارن ما سلف بما يحدث، فيتبرَّم من راهنية الراهن مفضلًا عليها ماضوية الماضي"[71]، وفي الوقت نفسه، يمثل الحنين للذات المغتربة المكلومة بالبعد والفقد جسرَ تواصُلٍ مع المفقود، ومحاولةً لاسترجاع الماضي الجميل علَّه يُخفّف عنها من قسوة الواقع ومرارته، فبالحنين والشوق تَقهَرُ الذاتُ المغتربةُ الغُربة، وتَشُقُّ طريقًا يبسًا في بحر الغربة لتصل إلى معانقة لحظات حياتها السالفة لثمًا وعناقًا والتذاذًا، ومن هنا، فالحنين في شعر غربة ابن خطاب يكاد يلهجُ بحديث الذكريات الجميلة، ويستدعي لحظاتِ الاتصال بموضوعه من المكان والأحبة واللذة ، والأمن، والكرامة، والعزة، بكل تِلكُمُ القيم الإنسانية في أندلس ابن خطاب المرسي قبل النكبة والجلاء، وفي الآن نفسه تعصف به ذكرى ما حلَّ ببلده مرسية من خراب ودمار، وما أعقب ذلك أو صاحَبَهُ من امتهانٍ لكرامة الإنسان لاسيما المرأة، من استباحة العِرض بعدَ الأرض، فينتقل الحنين من سرد لحظات الاتصال الحميم إلى سرد مشاهد الترويع والإرهاب.

على أن ما يميز شعر الحنين أنه يكون ممزوجًا بلوعة وحسرة على الماضي الذي تتطلع الذات المغتربة لعودته وتتمنى ذلك، ونجدها تستنجد بمظاهر الطبيعة من برق وسجع قمرية لما يشجيانها من شوق ويذكرانها الوطن والأهل والخلان، وتكون الدموع عنوانًا لهذا الشوق والحنين.

وحنين ابن خطاب يجليه البرق، فهو رمز الشوق والحنين، وللشاعر قصيدة محورها الحنين إلى الوطن، بناها على حرف الضاد: (الطويل)

سَـرَى الـبرقُ[72] فَـارْتَاعَ الفُـؤَادُ لِوَمْضِـهِ فَبِـتُّ وَجَفْـنِي لَمْ يَـذُقْ طَعْـمَ غَمْضِـهِ
تَبَـدَّى كَعِـرْقٍ فِي الغَمَامَـةِ نَابِـضٍ يَـدُلُّ علـى سُـقْمِي تَـوَاتُرُ نَبْضِـهِ
سَـجَدْتُ لَـهُ لَمَّـا تَـرَاءَى يَمَانِيًـا وَأَكْمَلْـتُ مِـنْ دَمْعِي طَهُـورِي لِفَرْضِـهِ
وقَضَّـيْتُ مِـنْ حَـقِّ الصَّـبابَةِ وَاجِبًـا بَرِئْـتُ مِـنَ العُشَّـاقِ إِنْ لَمْ أُقَضِّـهِ
وَذَكَّـرَنِي عَصْـرَ الشَّـبابِ وَطِيبَـهُ وَعَيْشًـا تَحَلَّيْنَـا مَلِيًّـا بِغَضِّـهِ
وَعَهْـدًا شَـدَدْنَا عَقْـدَهُ بِيَـدِ الوَفَـا فَـلا بَطَشَـتْ كَـفٌّ تُمَـدُّ لِنَقْضِـهِ
فَيَـا سَـارِيَ البَرْقِ الـذي ضَـاعَفَ الأَسَـى عَلـى دَنَـفٍ مَـا زَالَ يَشْـقَى بِنَضِّـهِ
أَعِنْـدَكَ مِـنْ أَهْـلِ العَقِيـقِ رِسَـالَةٌ أُقارِضُـكَ عَـنْ إِبْلاغِهـا خَـيْرَ قَرْضِـهِ
وَإِلَّا فَـبَلِّغْهُمْ تَحِيَّـةَ مُوجِـعٍ يُعَـانِي الـذي يَنْهَـدُّ رَضْـوَى لِبَعْضِـهِ
وَجَـرِّدْ عَلـى وَادِيهِـمُ ذَيْـلَ دِيمَـةٍ تُنَمْـنِمُ بِالأَزْهَـارِ صَـفْحَةَ أَرْضِـهِ
حَنِيـنِي إِلى الـوَادِي لِأَجْـلِ جِـوارِهِمْ مُجَـاوَرَةَ المَخْفُـوضِ تَعْـدى بِخَفْضِـهِ[73]

تجلت تجربة ابن خطاب في النص من خلال فعل البرق في الذات الشاعرة؛ (ارتاع، بتُّ، سجدتُ، قضيت، ذكرني)، قصة مبدؤها سُرى البرق، وحدثُها التأزُّمي ارتياعُ الفؤاد، ونتيجتُها البياتُ الأَرِقُ والسُّهَاد، ونهايةُ مطافِها الحنينُ إلى الوادي. فالقصيدة تنشطر شطرين، شطرًا يجري في شكل سردٍ خبري، يكشف عن حالة تأثر الذات الشاعرة بالتماع البرق وسراه، ففجَّر فيها لواعج الشوق وسَلَبَ عنها النَّوم، وأقضَّ مضجعها، ونقلها إلى عوالم الذكريات الجميلة، حيث زمنُ الشباب الذهبي، وزمنُ الوصال من دون نكد أو خوف، ليأتي الشطر الثاني مفارقًا في أسلوب الشطر الأول، فكُلُّه أو جُلُّه أمنياتٌ وتطلُّعات، فهو يجري بأساليب إنشائية من نداء واستفهام، وأمر؛ ليكشف عن مرارة الفقد للماضي والمكان والذوات، ليختم النص بجملة الحنين السارية مع الشاعر للديار سُرى البرق في الآفاق"[74].

والحنين عند ابن خطاب حنين إلى بلده مرسية، ربة الجمال، بطبيعتها الخلابة، وحدائقها الغلب، حيث فضاءات الطرب والأنس والوصال، إنه حنين إلى الحياة والعبُّ من لذائذها ومتعها، وهو في استحضار هذه اللحظات الجميلة ليذهب بتمثل الأنس في منبج الشامية، حيث تكون أَكْؤُسُ النشوة مُترَعَةً؛ لتشابه الأجواء

في كلتا المدينتين.نجد ذلك في قصيدته البائية التي افتتحها بمطلع وجداني، مخاطبًا صاحبه بأن يشاركه الشوق والحنين إلى ديار الأحبة، ويذرف الدموع لبعده عنها[75]: (الخفيف)

خَــلِّ غَــرْبَ الــدُّمُوعِ يَنْهَــلُّ صَــبًّا وأَدِلْهَــا إنْ كُنْــتَ بالشَّــوْقِ صَــبًّا
وإذا مــا تَرَّفْــتَ دَمْعَــكَ فاسْتَنْـــ ـجِـدْ علـى سَـقْيِها مِـنَ السُّـحُبِ صَـحْبَا
وارْعَ مِــنْ عَهْــدِها قَــدِيمًا كَرِيمًــا لا يَخُــونُ العُهُــودَ مَــنْ كــانَ نَــدْبَا
كَــمْ أَباحَــتْ لَنــا جَناهــا وَمَــدَّتْ فَوْقَهــا ظِلَّهــا حَــدَائِقَ غُلْبَــا
كَــمْ لَنــا مِثْــلُ لَيْــلِ مَنْــبِجَ فِيهــا لَيْلَــةٌ قُطِّعَــتْ عِتــابًا وعُتْبَــا
تَمْــزُجُ الوَصْــلَ بالصُّــدُودِ وَمَــنْ يُحْــ ـرَمُ هــذَا الْمِــزاجَ مــا ذاقَ عَــذْبَا
وتَمِــيسُ الغُصُــونُ والْــوُرْقُ تَشْــدُو فَــتَرَى مُطْــرِبًا يُــرَقِّصُ رَطْبَــا
أَتُــرانَا نَرْجُــو إِلَيْهــا مَعــادًا فَنَنَــالَ المُــنَى ونَقْضِــيَ إِرْبَا
كَيْــفَ لا؟ كَيْــفَ والنَّوائِــبُ شَــتَّى رُمْــنَ تفْرِيقَنــا فــأَقْبَلْنَ أَلْبــا

تغلب أساليب الإنشاء على هذه الأبيات؛ لانقداحها من جذوة الوجدان، فأفعال الأمر: خلّ، أدلها، استنجد، وارع، تشي ببناء جسر الاتصال بين الذات أو الذوات والموضوع، وهنا يحضر عنصر الدمع حاملًا لهذه الشحنة الوجدانية تجاه الموضوع "مرسية"، لتُذكِي الذكرى، بتوظيف الأداة "كم" الخبرية، التي تدل على الكثرة "فإذا وقع التكثير عليها بالتكرار تحولت الكثرة إلى فائض في الكلام ينتج فائضًا في الدلالة"[76]، ونرصد هنا عنصر التضاد الذي يثير ضربًا من المفاجأة والمفارقة، لكنها مفارقة عجيبة لذيذة؛ فثمَّةَ عتابٌ وعَتْبٌ، ووَصْلٌ وصدود، وهو ما جعل من هذه التركيبة مزاجًا عذبًا بتعبير الشاعر نفسه.

بيد أن هذا الزمن الجميل لم يعد قائمًا الآن، فتصدُّع الذات الشاعرة بالرغبة إلى استعادته عبر الأمنيات، وهيهات، فتقع في تمزُّق بين زمنين، وهكذا ف "تمزق الشاعر بين الماضي المتحسر عليه والواقع المرفوض استدعى لغة إنشائية تتراوح بين أساليب متباينة متوترة مشحونة بالانفعال، إظهارًا لتوتر الشاعر وتمزقه، وهي الاستفهام والتمنّي والترجّي..."[77]

إنَّ هذا الحنين لا يحمل ذكريات جميلة فحسب، بل إنه ليمتزج بواقعٍ كانت الذات الشاعرة شاهدة عليه، ليتحوَّل السياق من حنين إلى تفجُّع وبكاء ورثاء، ويأخذ النصُّ منحًى آخرَ من البَوْحِ الوجداني الذاتي، إلى

سردٍ موضوعيٍّ حينما يسرد الشاعر فجيعة ما حلَّ بالبلاد والعباد، لاسيما العذارى اللائي انقلب حالهن رأسًا على عقب، فكانت المفارقة جليَّةً في تغيُّر حالهن إلى النقيض.

كَيْفَ لا؟ كَيْفَ والنَّوائِبُ شَتَّى رُمْنَ تَفْرِيقَنا فَأَقْبَلْنَ أَلْبَا
والعَدُوَّانِ قَدْ أَنَامَا عَلَيْها أَرْهَقَا أَهْلَها نَكالًا وحَرْبَا
ذَاكَ يُؤْذِي بِلا سِلاحٍ وَهذَا سَالِبٌ لِلْأَرْواحِ طَعْنًا وضَرْبَا
فَفَرِيقٌ يَمُوتُ في الزَّحْفِ قَتْلًا وَفَرِيقٌ يَقْضِي مِنَ الجُوعِ نَحْبَا
وَعَذارَى خَلْفَ الحِجَابِ مَصُونَا تٍ عَذاها النَّعِيمُ دَهْرًا ورَبَّا
بارِزاتٍ يَسَلْنَ مُسْتَعْبِراتٍ فَكَأَنْ لَمْ يَعْرِفْنَ مِنْ قَبْلُ حَجْبَا
ظَامِياتِ الشِّفاهِ شُعْثِ النَّواصِي طالَما عِفْنَ خَالِصَ الماءِ شُرْبَا
ودُمًى تَنْهَبُ العُقُولَ غَدَتْ مِنْ بَعْدِ عُسْرِ المرامِ لِلرُّومِ نَهْبَا
كُنَّ مُلِّينَ زَهْرَةَ العَيْشِ حِينًا فَتَراهُنَّ اليَوْمَ مُلِّئْنَ رُعْبَا
لا سَقانِي الغَمامَ رَبِّي و لا نِلْ تُ مُرادِي إِنْ لَمْ أَمُتْ بَعْدُ كَرْبَا

يزخر النص بمعجم الفجيعة والتحوُّل؛ فسَرْدٌ ملؤه الجراح نازفة، والأرواح زاهقة، والموت شراكُ نعالِ أندلسيي مرسية، ولعل في إظهار حال نساء المدينة ليمثِّلُ ملمحًا من هذه الفجيعة، عبَّرْت عنه دوالُّ وتراكيبُ مشحونةٌ بالمفارقة، ولك أن تطالع هذه المفارقة: عذارى خلف الحجاب/بارزات، ظاميات/ عفن خالص الماء، دمى تنهب العقول/ غدت نهبا، ملين زهرة العيش/ ملين رعبا. حالٌ مَنْ يعشْها يُصَبْ بالكرب والأسى، وكأنه يستحضر بيت أبي البقاء الرندي في رثاء الأندلس:

لمثل هذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان في القلب إسلام وإيمانُ[78]

خاتمة:

تناول البحث ظاهرة الغربة والحنين عند أحد ألمع أدباء الأندلس في القرن السابع الهجري، وهو ابن خطاب الغافقي المرسي، فقد اكتوى بالغربة، ونزح عن بلده مُكرَهًا، وجاء شعره معبِّرًا عن تجربة الاغتراب، ولنا أن نقف على أبرز ما خلصْنا إليه بعد ذلك التطواف في عالم الاغتراب في شعر ابن خطاب، على النحو الآتي:

- كشف البحث عن تجربة الغربة والحنين عند أحد أبرز وألمع أدباء الأندلس في القرن السابع الهجري وهو ابن خطاب الغافقي المرسي(ت 686هـ)، من خلال متنه الشعري الذي بثَّهُ في مجموع ترسّله، لاسيما شعره الإخواني.
- تجسَّدت تجربة الغربة عند ابن خطاب من خلال تردُّد أوصاف الغربة ومرادفاتها كوصف الغريب والمغترب حسبما وصف بهما نفسه، وهو ناءٍ عن بلده، متطلع للعودة إليها، مستشرفًا إصلاح حالها، لاسيما وهو بمقامه بغرناطة، وهنا، نود أن نشير إلى أنه كان يشكو كثيرًا من الوحدة والوحشة رغم مقامه بغرناطة وتقلده منصبًا رفيعًا عند سلطانها، وأكثر ما نظم من شعره الاغترابي في هذه الفترة خاصة حسبما وصلنا من شعره.
- عبر نص ابن خطاب الشعري الاغترابي عن مفاصل الغربة من فراق وما تركه من ألم وأسى في نفسه، وشكوى من الزمان والمكان، وشوق وحنين عارمين نحو الديار. ولعل مفردات الفراق والفقد والغريب والشجن والحنين تشكل عقد معجم شعر الغربة لديه. فوصف فجيعة الفراق ومشهدها بأنه سكرات الموت، وأنه موت في حياة، كما شكا الزمن وتلعبه به، ونفر من المكان الآخر الذي فقد فيه الأمن والخل والأنس والدعة، مشرئبًا إلى المكان المثالي الذي كان كثير التطلع إليه وهو تونس
- مثل المكان في غربة ابن خطاب هاجسًا شغل الذات الشاعرة كثيرًا، فهي ما إن انتقلت عن مكانها الأم، إلا وتضيق بالمكان الآخر أيًا كان، فهي دائمة القلق مكانًا، فيغدو المكان معاديًا رغم توافر المال والجاه، فتبرم الذات الشاعرة بالمكان الغريب شكل ظاهرة نفسية أليمة، وكان التطلع نحو تونس حلمًا كثيرًا ما راود ابن خطاب.
- تنضح تجربة ابن خطاب الاغترابية بالشكوى من غدر الزمان وقسوته، وتقلباته، وتحولاته، إذ كان ينظر إلى الزمن أنه عدو، وأنه في صراع معه، لذلك فقد أكثر من ترداده ومرادفاته من أيام ودهر و... في غير قصيدة كالنونية، والواوية، واللامية، موظِّفًا دوالَّ تشي بالاستهداف والصراع ، على نحو الفعل " تلعّبت" الذي أفاد التكثير والمبالغة في اللعب وهو العبث، وكأنه غدا ألعوبة بيد الأيام تقلبه يمنة ويسرة، وترمي به كالكرة، وحوادثه تنثال دلالةً على كثرة استهداف الدهر إياه.
- خص ابن خطاب محنته في حصن منتيشة الذي لجأ إليه مع مجموعة من المرسيين، ورحلة التِّيه والتشرُّد، بحديث مستفيض، مذ كان الحصار ثم الاجتياح، ثم الفرار والخلاص إلى تلمسان، كل ذلك جاء في سرد حكائي عن رحلة التيه والتشرد وخروجه من الأندلس من دون رجعة.

- تضمن نص ابن خطاب الاغترابي وصف ما حل ببلده مرسية من تقلبات الزمن وعبث العدو بالعرض والأرض، مما شكل ذلك عنصر رثاء وبكاء عليها. وامتزاج شعر الغربة والحنين برثاء المدن، يعد ظاهرة في الشعر الأندلسي.
- فنيًا وأسلوبيًا، وظف ابن خطاب في التعبير عن تجربته الاغترابية معجمًا شعريًا تجتذبه دوالُّ البوح الوجداني من حزن وأنين وشجن وشوق وحنين، ودوالُّ معبرة عن تجربته مثل غريب، مغترب، ميت، بعيد الدار... كما وظف التناصُّ القرآني لوصف مشهد الفراق من خلال سياق القرآن وأسلوبه في وصف مشاهد القيامة، أو وصف بعض الغزوات كغزوة الأحزاب، متوسلًا بعنصر التكرار الذي يفيد التفخيم والتهويل من مثل " وما أدراك ما يوم الفراق؟".
- وظف ابن خطاب فن الصوت لإبراز تجربته بشكل قوي، فأشاع من أصوات المد والعلة، واتخذ أحرفًا ذات وقع شديد قوافي كحرف الضاد والقاف، فضلًا عن اختيار أوزان كوزن المتقارب الذي اتسم تكوينه النغمي بوضوح الجرس، وحدة الإيقاع.
- اتكأ ابن خطاب في تشكيل أسلوبه على أسلوب الإنشاء من استفهام وتمنٍّ ونداء، وقد جاءت مشحونة بالتوتر والحسرة والانكسار، وعلى فنِّ البديع، لاسيما الجناس الناقص والاشتقاقي والطباق والمقابلة والتصدير، واتخذ من الصورة الفنية التشبيهية خاصة عنصر عرض لتجربة اغترابه، وتصوير مواقف الشدة والحصار، موظفًا الطبيعة من برق وسحاب، وعالم الحيوان من قمرية وطير وأوعال وظبية وغيرها. كما عمد إلى أسلوب السرد الحكائي في استعراض خروجه إلى منتيشة وحصره فيها إلى نجاته وركوبه البحر إلى تلمسان.

الهوامش:

(1) من شعره قوله: تبدّت لنا وسط الرصافة نخلة تناءت بأرض الغرب عن وطن النخل

فقلتُ شبيهي في التغرُّبِ والنّوى وطول التنائي عن بنيَّ وعن أهلي

انظر: المقري،، أحمد، نفح الطيب مج3/ص54. هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، 1985، ص89.

(2) المراكشي، عبد الملك، الذيل والتكملة، س6/ص332.

(3) ابن خلدون، يحي، بغية الرواد ج1/ص129.

(4) ابن الخطيب، محمد أبو عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة، مج2/ ص426.

(5) ناصري، محمد، من أعلام الأندلس بالبلاط الزياني: أبا بكر بن خطاب المرسي، مجلة القرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، مج7، ع2، 2020م، ص216.

(6) ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر بن خطاب" لأبي بكر محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي المرسي الأندلسي رحمه الله (613 . 686هـ) ، دراسة وتحقيق فتيحة أمين، رسالة دكتوراه مرقونة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ، الرباط، جامعة محمد الخامس، العام الجامعي 2005/2004م. ، الدراسة الضافية عن ابن خطاب القسم الأول : الدراسة، أما شعره المجموع فانظره في الملحق ص345 . 369.

(7) ناصري، محمد، مجلة القرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، مج7، ع2، 2020م.

(8) عزرودي، نصيرة، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج7/ع2/ سنة 2008.

(9) ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر بن الخطاب، دراسة وتحقيق، ق1/ ص120.

(10) الفيروز آبادي، مجد الدين القاموس المحيط " غرب.

(11) ابن منظور، جمال الدين، لسان العرب: " غرب".

(12) انظر: الزهراني، مها، الاغتراب والحنين بين شعر المشارقة والأندلسيين في القرن السادس الهجري، ط2، نادي الشرقية الأدبي، 1425هـ/2004م ، ص15.

(13) رجب، محمود، الاغتراب سيرة مصطلح، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1988، ص41.

(14) رجب، محمود، الاغتراب، ص43.

(15) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص33.

(16) رزق أحمد، رزق المتولي، تجليات الغربة والحنين في شعر الصِّمة بن عبد الله القشيري، (دراسة تحليلية نقدية)، مجلة الزهراء، ع31، ص4661.

(17) السلفي، سالم، البنى الأسلوبية في شعر الغربة، ص27.

(18) المرجع نفسه.

(19) انظر: جوادي، هنية، الغربة المكانية في نماذج من شعر ابن الأبار، ص384.

(20) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص35.

(21) السلفي، سالم، البنى الأسلوبية في شعر الغربة، ص47.

(22) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، ص35.

(23) الزهراني، مها، الاغتراب والحنين، ص19.

(24) القرطاجني، حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص12.

(25) المرجع نفسه، ص249.

(26) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص189.

(27) المرجع نفسه، ص46.

(28) المرجع نفسه ، ص50.

(29) بو فلاقة، محمد سيف الإسلام، الغربة والحنين في النص الشعري الأندلسي بين الاتباع والإبداع، مجلة البدر، جامعة بشار، مج 10، ع7، 2018، ص821.

(30) بهجت، منجد مصطفى، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، 92 . 897هـ، مديرية دار الكتب للطباعة للنشر، جامعة الموصل، 1408هـ . 1988، ص334.

(31) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص49.

(32) ابن خطاب ، أبوبكر، فصل الخطاب، القسم الثاني، التحقيق، ص3.

(33) الأصفهاني، أبو الفرج، أدب الغربة، ص32.

(34) ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب، الدراسة، ص55.

(35) الخليلي، مها، الحنين والغربة في الشعر الأندلسي، " عصر سيادة غرناطة: 635 . 897هـ، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا بجامعة النجاح، فلسطين، 2007م. ص97.

(36) السلفي، سالم، البنى الأسلوبية في شعر الغربة، ص107.

(37) الخليلي، مها، الحنين والغربة في الشعر الأندلسي، ص104.

(38) المقري، أحمد، نفح الطيب، ج1/ص694.

(39) ينظر: عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، ط5، القاهرة، 1998م، ص230.

(40) ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب ، المتن ج2/ ص171، وملحق مجموع شعره ج356/2.

(41) المصدر نفسه: ج2/ص126.

(42) نجا، أشرف، في الأدب الأندلسي " بحوث في نقد الخطاب الإبداعي، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، الإسكندرية، 2006م، ص85.

(43) انظر: باوزير، خالد، والعربي، أمين، التصدير في شعر ابن الحداد الأندلسي(ت 480هـ)، دراسة في التماثل والتخالف، مجلة الريان للعلوم الإنسانية، مج8، ع14، يونيو 2025م، ص144.

(44) السلفي، سالم، البنى الأسلوبية في شعر الغربة، ص68.

(45) – ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب ص182.

(46) – المصدر نفسه، ص204.

(47) ابن الخطيب، محند، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج2/ص426.

(48)ابن خطاب، أبو بكر ، فصل الخطاب، ص174.

(49) المصدر نفسه، المتن المحقق، ج212/2.

(50) عزرودي، نصيرة، أصداء عن تلمسان الزيانية من خلال رحلة الفقيه أبي بكر بن خطاب المرسي(7هـ/13م)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج7/ع2/ سنة 2008، ص79.

(51) ابن خطاب، أبو بكر، فصل الخطاب، المتن المحقق، ج212/2.

.(52) عطية، رضا، الاغتراب في شعر سعدي يوسف، قراءة ثقافية، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2018م، ص151.

(53) السلفي، سالم، البنى الأسلوبية في شعر الغربة، ص57.

(54) ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب ص182.

(55) ينظر: طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص80.

(56) الفلاحي، أحمد، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، دراسة اجتماعية نفسية، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 1434هـ. 2013م، ص75.

(57) المرجع نفسه..

(58) – ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب ص182.

(59) المصدر نفسه، ص204.

(60) المصدر نفسه ص172.

(61) أبو موسى، محمد، دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، ط2، دار التضامن، القاهرة، 1408هـ. 1987م. ص194.

(62) المرجع نفسه، ص199.

(63) المرجع نفسه، 195،196.

(64) السلفي، سالم، البنى الأسلوبية في شعر الغربة، ص168.

(65) المرجع نفسه، ص189،190.

(66) بدوي، عبده، الغربة المكانية في الشعر العربي، مجلة عالم الفكر، المجلد 15/ ع1، سنة 1984، ص38.

(67) المرجع نفسه، ص39.

(68) عن رحلاته، انظر: ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب، المتن، ص145، 152، 180/ 192. ودراستنا في فصل الخطاب، ج1/ص 129. باوزير، خالد، فن الترسل الإخواني في القرن الهجري السابع، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الرباط، جامعة محمد الخامس، 2005/2004م، ص219. عزرودي، نصيرة، أصداء عن تلمسان الزيانية ص72.

(69) ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب ص204.

(70) المنصوري، أحمد، اللون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 1425هـ . 2004م، ص176.

(71) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، ص7.

(72) ورد في رحلة البلوي(سرى البدر)، لكن الصواب سرى البرق؛ لوجود إشارات ودلائل لفظية ومعنوية في القصيدة تدل على ذلك كالومض، والغمامة، والعرق، ويمانيا...إلخ. انظر شعره في : ابن خطاب، أبو بكر، فصل الخطاب، ج2/ص334.

(73) – البلوي، خالد بن عيسى، رحلة البلوي المسماة " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، مقدمة وتحقيق الحسن السايح/ مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب، ج1/ص150،151.

(74) العربي، فتيحة، شعرية وصف البرق في الشعر الأندلسي، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، م13/ع2/(2025) من ص76 . 88.ص98.

(75) – القصيدة واردة في ابن خطاب، أبوبكر، فصل الخطاب ص177.

(76) السلفي، سالم، البنى الأسلوبية في شعر الغربة، ص170.

(77) طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ص263.

(78) المقري، أحمد بن شهاب، نفح الطيب، مج 4/ 488.

المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
2. ابن خطاب، أبو بكر، فصل الخطاب في ترسيل الفقيه أبي بكر بن خطاب، دراسة وتحقيق الدكتورة فتيحة أمين، رسالة دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، عام 2005/2004.
3. ابن الخطيب، محمد أبو عبد الله، الإحاطة في أخبار غرناطة. تحقيق محمد عبد الله عنان، ط1، مكتبة الخانجي بالقاهرة، 1394هـ ـ 1974م.
4. ابن خلدون، يحي، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 140هـ ـ 1980.
5. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت، 1412هـ . 1992م.
6. أبو موسى، محمد، دلالات التراكيب، دراسة بلاغية، ط2، دار التضامن، القاهرة، 1408هـ . 1987م.
7. الأصفهاني، أبو الفرج، كتاب أدب الغربة، نشره الدكتور صلاح الدين المنجد، ط1، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 1972.
8. البلوي، خالد بن عيسى، رحلة البلوي المسماة " تاج المفرق في تحلية علماء المشرق"، مقدمة وتحقيق الحسن السايح/ مطبعة فضالة، المحمدية، المغرب.

9. بهجت، منجد مصطفى، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ، 92 . 897هـ، مديرية دار الكتب للطباعة للنشر، جامعة الموصل، 1408هـ . 1988.

10. رجب، محمود، الاغتراب سيرة مصطلح، ط3، دار المعارف، القاهرة، 1988.

11. الزهراني، مها، الاغتراب والحنين بين شعر المشارقة والأندلسيين في القرن السادس الهجري، ط2، نادي الشرقية الأدبي، 1425هـ/2004م.

12. السلفي، سالم، البنى الأسلوبية في شعر الغربة، ط1، دار أمجد للنشر والتوزيع، الأردن، 2018م.

13. طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة . الدار البيضاء، ط1، 1993.

14. عطية، رضا، الاغتراب في شعر سعدي يوسف، قراءة ثقافية، ط1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2018م.

15. عمر، أحمد مختار، علم الدلالة، عالم الكتب، ط5، القاهرة، 1998م.

16. الفلاحي، أحمد، الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، دراسة اجتماعية نفسية، ط1، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، 1434هـ . 2013م

17. الفيروز آبادي، مجد الدين، القاموس المحيط/ ط8، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1426هـ . 2005م.

18. القرطاجني، أبو الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محد الحبيب الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط3، بيروت، 1986.

19. المراكشي، عبد الملك، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر السادس تحقيق إحسان عباس، ط1، دار الثقافة، 1973م.

20. المقري. شهاب الدين أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان ط 2004م.

21. المنصوري، أحمد، اللون في الشعر الأندلسي حتى نهاية عصر الطوائف، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، 1425هـ . 2004م.

22. نجا، أشرف، في الأدب الأندلسي، بحوث في نقد الخطاب الإبداعي، ط1، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، مصر، الإسكندرية، 2006م، ص85.

23. هيكل، أحمد، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، دار المعارف، 1985.

الرسائل الجامعية :

1. باوزير، خالد، فن الترسل الإخواني في القرن الهجري السابع، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ـ الرباط، جامعة محمد الخامس، 2005/2004م
2. الخليلي، مها، الحنين والغربة في الشعر الأندلسي، عصر سيادة غرناطة: 635 ـ 897هـ، رسالة ماجستير، كلية الدراسات العليا بجامعة النجاح، فلسطين، 2007م.

المجلات والدوريات :

1. باوزير، خالد، والعربي، فتيحة، التصدير في شعر ابن الحداد الأندلسي (ت 480هـ)، دراسة في التماثل والتخالف، مجلة الريان للعلوم الإنسانية، مج8، ع14، يونيو 2025م.
2. بدوي، عبده، الغربة المكانية في الشعر العربي، مجلة عالم الفكر، المجلد 15/ ع1، سنة 1984.
3. بو فلاقة، محمد سيف الإسلام، الغربة والحنين في النص الشعري الأندلسي بين الاتباع والإبداع، مجلة البدر، جامعة بشار، مج 10، ع7، 2018.
4. جوادي، هنية، الغربة المكانية في نماذج من شعر ابن الأبار، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، مج 4/ع 3/سبتمبر 2021(ص382 ـ 392).
5. رزق أحمد، رزق المتولي، تجليات الغربة والحنين في شعر الصِّمة بن عبد الله القشيري، (دراسة تحليلية نقدية)، مجلة الزهراء، ع31.
6. العربي، فتيحة، شعرية وصف البرق في الشعر الأندلسي، مجلة الحكمة للدراسات الأدبية واللغوية، م13/ع2/(2025) من ص76 ـ 88.
7. عزرودي، نصيرة، أصداء عن تلمسان الزيانية من خلال رحلة الفقيه أبي بكر بن خطاب المرسي(7هـ/13م)، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، مج7/ع2/ سنة 2008.
8. ناصري، محمد، من أعلام الأندلس بالبلاط الزياني: أبا بكر بن خطاب المرسي، مجلة القرطاس للدراسات الفكرية والحضارية، مج7، ع2، 2020م.